Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على التدريس لأنه المجال الوحيد الذى يستطيع فيه أن يلتقى بناشئة غرناطة ، وأن يتحدث إليهم عن المظالم حولهم ، وعن طغيان اليهود فى كل ناحية ، دون هجوم مباشر يثير حفيظتهم ، أو يغرى به الوزير . وكان بحكم مهنته فقيهًا ، ولانتمائه إلى أسرة عربية عريقة غير راض عن سيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية ، وهى مشاعر من المؤكد أنها اجتاحت أعماقه شابًا ، وأخفاها زمنًا ، دون أن يتوقف عن إثارة الذين حوله ، والإعداد للثورة ، وتغيير الأوضاع الجائرة . ووجد فى رئيسه ابن توبة القاضى حماية وكبحا ، وفى صمويل الوزير إغضاء وحلما ، فلما توفى الأول فى ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، والثانى فى ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ، واجه جامحا ووحيدًا الوزير اليهودى الجديد ، ولم يكن على شىء من مداراة أبيه ، وفاضت بأبى إسحاق مشاعره فنفاه باديس بضغط من وزيره اليهودى خارج غرناطة ، فتركها واستقر فى ضواحى مدينة إلبيرة الخربة ، فى زاوية تسمى رابطة العُقاب ، وهناك نظم قصيدتين ، مطلع الأولى :

ألفتُ العُقاب حذار العِقاب وعفتُ الموارد خوْف الذئاب

ومطلع القصيدة الثانية :

ألا حيِّ العُقاب وقاطنيه وقلْ أهلاً به وبزائريه

ويبدو أنه أمل فى رفاقه من الفقهاء خيرًا ، من الانتصار له ، ورفع الغبن عنه ، والسعى لعودته ، ولكن أمله فيهم لم يصدق . ونفهم من شعره أن موقفهم منه لم يكن سلبيًا فحسب ، وإنما بينهم – ولعلهم الأكثرية – من تقرّب بإيذائه ، وجارى أعداءه ، ودس عليه عند الحاكمين . ويعبر أبو إسحاق عن ألمه من هذا الموقف ، فى بيت من الشعر ينضح مرارة :

وكمْ ذئبٍ يجاوره ولكنْ رأيتُ الذئبَ أسلم من فقيه

وتوالت الأحداث سراعا ، وفارق أبو إسحاق إلبيرة إلى غرناطة العاصمة فى تاريخ نجهله ، ووجدها فى قمة الغليان والاضطراب ، فالعرب والبربر فى استياء بالغ من يوسف ابن صمويل ، وينسبون إليه أقسى النوايا رعبًا ، وهو بحماقاته يدفعهم إلى المزيد من الكراهية والتطرف وكان وقود الثورة معدًا ، وفى حاجة إلى من يشعل النار فحسب ،